الجزعُ ولمساتُه الأدبية في المرثاة الإسلامية

Grief and its literary touches in the Islamic eulogy

د. سيد حيدر فرع شيرازي د. رسول بلاوي
جامعة خليج فارس، بوشهر/ إيران
Dr. Sayed Haydar Shirazi Branch
Persian Gulf University, Bushehr / Iran
Dr. Rasoul Balawy
Persian Gulf University, Bushehr / Iran

ملخص البحث

إنّ الجزع بصفته عنصراً (صورة) من العناصر الرئيسية في الرثاء كان له دور فاعل في الأدب الجاهلي لكنّه تضاءل ضوؤه في المرثاة الإسلامية لما ارتسم فيه من سلبيات تضاعف الهموم. وقد افتخر به البعض ورفضه الآخر من الشعراء انطباعاً بالعقليّة الحديثة المنبعثة عن الوحي المنزل وسنُّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وخاض بحثَه الفقه الإسلامي من بين ردّ وقبول وكان لهذا التطور الموضوعيّ صدى أدبيّ واسع في المراثي الشعرية على رأسها الشعر المخضرم الذي ألمحنا إليه على وجه الاختصار.

الكلمات الدليلية:الشعر، الجزع، الرثاء، الإسلام.

Abstract

Keywords: poetry, grief, lamentation, Islam

Grief as a component (image) of the main elements of elegiac poetry had played an active role in the literature of the pre-Islamic age, but diminished in the Islamic elegiac poetry, because of its negative effects in doubling sorrows . This kind of poetry was a source of proud to some of the poets while rejected by others under the impact of rationalism rising from the Divine Inspiration and Sunnah of Prophet Mohammed (PBUH). There were researches of Islamic jurisprudence from among there was rejection and acceptance. This objective development has a broad literary echo in the elegiac poetry on top of which is the veteran poetry which was referred to briefly.

إنّ الجزعَ من العناصر (الصور) المهمّة التي اكتنفت به المراثي ولاسيّما في أوائل صدر الإسلام وما قبله لكنّه لم يعالجه الأدباء والنقاد كعنصر (صورة) يستقلّ بذاته لِيُعرَّف بصفاته ومميّزاته في المرثاة الأدبية الهادفة، والملتزمة بثقافة وأفكار نفسية سليمة تتزوّد بعقائد تشريعية إسلامية.

ولعلّ الناقدين مرّوا عليه في عناصر (صور) أخرى من الرثاء كالتعزية والندبة لكنّه كان مروراً بلا تأنٍّ يليق به في أدب النقد، فمثلاً نجد المبرد (٢١٠ – ٢٨٦هـ) في كتابه التعازي والمراثي أنّه يدرس موضوع التعزية وتعريفها ويقوم بذكر الأمثلة الحكمية أو الشعرية فيها ولكن عندما يأتي دور الجزع يكتفي فيه بذكره أو بلمحة طفيفة جدّاً إلى تعييره لبعض الجاهليين من غير تفصيل في تعريفه أو التنويه بشيء من مميزاته فيقول عن المدائني انّه: «كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً يتحاضون على الصبر، ويعرفون فضله، ويعيّرون بالجزع أهله، إيثاراً للحزم وتزييناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء» (المبرد، ٢٠٠٩م، ص١)

فكما يبدو أنّه لم يُفرد عنصراً (صورة) في التأبين ولا الندبة ولا الجزع ولا غير ذلك محتسباً الرثاء في التعزية، والتعزية في الرثاء. وكذا قدامة بن جعفر(٢٦٠ – ٣٣٧هـ) في كتابه نقد الشعر فإنّه إذا ما أفرد باباً في «نعت المراثي» فإنّه لم يفرد عنصراً (صورة) للمرثية في الجزع سوى إشارة مختصرة في بيان الاختلاف بين المرثية والمدحة، والمديح والتأبين، وفي ذكر كيفيّة البكاء من المرثية (راجع: قدامة بن جعفر، ١٤٢٦هـ، صص١٠٣- ١٠٧)

وأمّا ما أورده ابن عبد ربه (٢٤٦ – ٣٢٨هـ) في كتابه العقد الفريد تحت عنوان «كتاب الدرة في التعازي والمراثي» في قسم «الجزع من الموت» فإنّه لم يتجاوز عنه إلاّ بذكر روايتين فيمن جزع عند الموت فحسب. (راجع: ابن عبد ربه، ٣٤١/١) وروايات أخرى في التعزية والبكاء، ولم نجد له في الجزع أو غيره من العناصر (الصور) تعريفاً علمياً أو لغويّاً يتناول ذلك. ولما نأتي إلى ناقد آخر كابن رشيق (٣٩٠ - ٤٦٣هـ) في كتابه العمدة فإنّه بالإضافة إلى ما طرقه من ذكر للفوارق بين الرثاء والمديح وتعرِيف له في الرثاء إجمالاً، فله حديث مجمل عن الجزع لتخصيص أشدِّه على النساء في قوله: «النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة، وأشدّهم جزعاً على هالك؛ لما ركّب الله عزّ وجلّ في طبعهن من الخور وضعف العزيمة» (ابن رشيق، ج١، ص١٦٢) وليس له من غير هذا ممّا ينبغي ذكره إلاّ أنْ نقول انّه تبسّط شيئاً في مجال آخر من عناصر (صور) الرثاء كالتأبين.

وأمّا الأدباء والنقاد المعاصرون فإنّهم كذلك لم يُفردوا للجزع ما يليق له باباً ليدرسوه في عنصر (صورة) مستقل عن العناصر الثلاثة الأخرى (الندبة والتأبين والتعزية[١]) كما لا نرى له مثلاً دوراً في كتاب الرثاء لشوقي ضيف، أو في كتاب في الأدب وفنونه لأبي ملحم، أو المؤلفات المعاصرة الأخرى التي كانت بمتناول أيدينا. وإذا كان فيه بحث ودراسة

فإنّه نوقش ضمن العناصر (الصور) الأخرى كالندبة أو في أمثلة من التأبين وما إلى ذلك. وعلى هذا قمنا في هذا المقال بدراسة جزئية أكثر للجزع لنقدّم له تعريفاً يبين دوره أو مكانته بين ثقافتي الجاهلية والإسلامية.

إنّ الجزع بما له من سعة المعنى فله مظاهر شتّى يختلف بعضها عن الآخر بين الردّ والقبول في الأدب الملتزم. إنّ الجزع بمختلف مظاهره من اللطم وجزّ الشعر وخرق الجيب والدعاء على النفس بالويل والثبور والنياحة بالكذب والباطل وما إلى ذلك كان يعتدّ ويوصَى به في الفكرة الجاهلية بينما رُفض الكثير منها في الإسلام وأُيِّد البعض الآخر في ظروف مختصّة. وظهر صدى ذلك بنباهة أو غفلة في مراثي الشعراء؛ فمنهم من كان يوصي لبَعد وفاته بالجزع فيه تكريماً لنفسه ودأباً على عرف القبيلة وعقيدتها؛ ومنهم من كان يوصي ويؤكّد على عدم الجزع له بعد فنائه لسلبيّات يراها في الجزع احتفاظاً بشخصية الإنسان وكرامته وانطباعاً بعقيدة الشريعة والدين؛ ومنهم من كان يرخّص في الجزع لا على الإطلاق وإنما بلحاظ شروط لجلل المصيبة وتخليدها اعتماداً على عدّة مرتكزات عاطفية وسياسية معتبرة في أحاديث مأثورة.

٢. الجزع لغةً

إنّه قد استعمل الجزع بمعنى الحزن والخوف كما روي عن ابن أثير أنّه: «لما طُعِنَ عُمر جعَل ابن عباس، يُجْزِعُه». قال ابن الأثير: أي يقول له ما يُسْليه و يُزِيل جَزَعَه و هو الحُزْنُ و الخَوف». (ابن منظور، ج٨، ص٤٨) قال أَعْشَى باهلَة:

فإنْ جَزِعْنا، فإنَّ الشرَّ أَجْزَعَنا

و إنْ صَبَرْنا، فإنّا مَعْشَرٌ صُبُر

(السابق، ج٨، ص٤٧)

ولكنَّ الجَزَع قد يختلف عن الحزن لأنّه: «أبلغ من الحزن، فإنّ الحزن عام و الجزع هو: حزن يصرف الإنسان عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه ... يقال: جَزَعْتُهُ فَانْجزع» (الراغب الإصفهاني، ١٤٠٤هـ، ص١٩٥). وإذا راجعنا اللغة في ما وضع في أصل معناه فإنّ الأصل الواحد في هذه المادّة: «هو القطع المخصوص أي قطع ما كان له امتداد تحقيقاً أو تقديراً فتقطع امتداده عرضاً و من وسطه ...» (مصطفوي،١٣٦٠ش، ج٢، ص٨٢) وأمّا الجزع الذي ورد في الوحي المنزل فهو ضدّ الصبر كما في قوله تعالى: (إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) وفي قوله تعالى: (سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا) (إبراهيم/٢١) وعليه فإنّ التعبير بهذه المادّة في الآيتين الكريمتين يشير: «إلى أنّ الإنسان الجزِع يظلم نفسه ويقطع امتداد طمأنينته وجريان أمره، مع أنّ وظيفته الصبر والثبات والاستقامة حتّى يظفر بمقصوده» (السابق، ج٢، ص٨٢)

٣. الجزع اصطلاحاً

إنّ الجزع هو ضرب من الحزن الشديد القاسي يفقد الإنسان فيه صبره وينسى معقوله فيحرك لسانه وشفتيه وأعضاءه بما يسخط الربّ وبما يجلب

النَدَب والجرحَ ويختلّ توازنه النفسي والفكري والسلوكي إلى حدّ الهزيمة واليأس. وله مصاديق كثيرة ودرجات مختلفة يتأرجح بين الشدّة والضعف والكثرة والقلّة والردّ والقبول من منظور القيم الإسلامية فمن مصاديقها: العولة والصرخة وشقّ الجيب وخمش الوجه وجزّ الشعر ولطم الصدر وكشف الستر والدعوة على النفس بالهلاك والثبور والنياحة بالغناء على الكذب والباطل. وهذا كلّه مقابل الشرّ الذي تقصده الآية (إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً) وهو شامل لكلّ الحوادث السلبية معنوية ومادية، فالخسارة الاقتصادية شر، و فقدان الأحبة شر، و المرض شر. وقد صوّر كعب بن زهير صاحب البردة المعروفة «بانت سعاد» جزع المرأة الثكلى التي فقدت ولدها الوحيد كيف تفقد عقلها ويختلّ توازنها فتمزّق قميصها تمزيقاً:

نوّاحة رِخوَةَ الضَبعينِ، ليس لها
لمّا نعى الناعونَ معقولُ
تفري اللّبانَ بكفّيها و مِدرَعُها
مُشَقّقٌ عن تراقيها رعابيلُ

(كعب بن زهير، ص١٣١)

وقال الأخطل:

وأبكيتُ من عتبانَ كلّ كريمةٍ
على فاجعٍ قامت مُشَقّقةً عُطلا
مُدَمِّيةً حُرّاً من الوجهِ حاسراً
كأن لم تمُت قبلي غلاماً ولا كهلا

(الأخطل، ص٣٩٠)

٤. الجزع في أدب الشعر

كان الجزع والإيصاء به بمختلف مصاديقه من الأمور التي اهتمّ بها الكثير من الشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي وكان للإسلام دورٌ فاعلٌ أحياناً في بعض مجالاته ممّا جعلنا أنْ نقوم فيه بنقاش ولو كان مختصراً في الشعر المخضرم وذلك فيما يلي:

٤-١. الجزع في الشعر المخضرم

لا مشاحة أنّه كان للبعثة النبويّة والعقليّة الإسلامية الحديثة أثر بالغ في المضامين الأدبية الشعرية في صدر الإسلام فمن تلك المضامين هو الجزع في الرثاء حيث نجد فيه اختلافاً ملحوظاً بين الشعر الجاهلي منه والإسلامي. فقد كان من دأب الشاعر الجاهلي عند البكاء على الميت الإعوال والرنّة و شقّ الجيوب ولطم الخدود وتعفير الرؤوس، واجتماع النسوة لندب الميت. وكانت النّساء يجتمعن في مناحة صاخبة، يصحب ذلك لطم على الوجوه والصدور بالأكف أو قطع الجلود أو النعال. والأمثلة فيها كثيرة فقد صوّر عبد مناف بن رِبع الهذلي تصويراً أليماً ما تفعل أختاه على أبيهما من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق، كأن في جوف كلتيهما مزماراً لا يفتأ يصوّت، ومن صفق الصدر بالسِّبتِ صفقاً يخدش الجلد:

إذا تأوّب نَوحٌ [٢] قامتا معه
ضرباً أليماً بسبتِ يلعَج الجلِدا

(المبرد، ١٤١٧هـ، ج٤، ص٤٦)

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا البحث أنّ

الفكرة الجاهليّة كانت تؤمن بأنّ الجزع الشديد من قبل النساء دون الرجال من مثل الضرب واللطم و الشقّ وما إلى ذلك مجلبة للفخر والكرامة. فكان للأسف أصحاب هذه الفكرة السيئة يهتفون بها في مفاخراتهم ويوصون بها حرُماتهم، رافضين ذلك لأنفسهم لما فيه من فقدان الصواب وانفلات الأعصاب وثورة العاطفة الجريحة المشينة بصاحبها. فهم كانوا يعتبرون المرأة كائنة ضعيفة لا يليق بها إلاّ العجز والصراخ والعويل فقد كان طرفة من اولئك الشعراء الجاهليين الذين اعتبروا اللطم وشق الجيوب للفقيد إحتراماً وإكراماً لأنفسهم فلذلك نراه يوصي أهله بشق الجيب خاصة أنّه يعتبر نفسه مستحقاً للندبة والجزع إذ أنّ له رفعة ليست لغيره وهو ينفع ما لا ينفع سواه وقد شهد معارك لم يشهدها مثيله . يقول طرفة بن العبد في وصية له لابنة أخيه :

فإن مت فانعيني بما أنا أهله

وشقّي عليّ الجيب يا أمّ معبد

(طرفة بن العبد، ١٤١٤هـ، ص١١٨)

فكما يبدو من هذا البيت وغيره ممّا يشابهه من الأبيات أنّ الجزع لم يكن ليفتخر به الشاعر الجاهلي لنفسه وإنّما رآه لنفسه مذموماً ولغيره من النساء ممدوحاً فأوصى به في حياته ليجزع عليه بعد مماته بعكس ما نراه في المرثاة الإسلامية من التأكيد على حرمة المرأة وكرامتها والوصية المؤكّدة لها بعدم اظهار الجزع الشديد ممّا سنوضحه فيما أوصى به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابنته فاطمة (عليها السلام) والنساء المسلمات وبما أوصى وأكّد عليه الحسين بن عليّ (عليه السلام) في وصيّته لزينب (عليها السلام) ليلة عاشوراء.

٤-٢. الجزع عند لبيد بين الرفض والقبول

عندما نلقي نظرة على الرثاء العائش بين الفترتين الجاهلية والإسلامية نجد الجزع فيه تختلف لمساته بين من أسلم وباشر الإيمان قلبه وبين من أسلم و لماّ يدخل الإيمان لحمه ودمه.كان لبيد له موقف من الجزع فيما كان يستسيغه للنّساء تكريماً لشخصيته - وذلك انطباعاً بالعقلية الجاهلية - عمّا يمجّه لهنّ بعد اعتناقه للإسلام وذوبانه في قِيَمه الأخلاقيّة. واكتفائه بطلب البكاء وتذراف الدموع عليه على سنُة من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيرته. فلبيد بن ربيعة هذا الشاعر الجاهلي يرثي أخاه أربد بقصيدة ينفي فيها الجزع عن نفسه قائلاً:

فلا جزِعٌ إن فرّق الدّهرُ بينَنا

وكلّ فتىً يوماً به الدهر فاجعُ

فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحَةٍ

ولا أنا ممّا أحدث الدّهرُ جازعُ

(لبيد، ١٤١٧هـ، ص١١٠)

ويعاود الكلام في نفي الجزع عن نفسه في موضع آخر من قصيدته هذه في كلمة حِكَمية قائلاً:

أتجزعُ ممّا أحدث الدهرُ بالفتى

وأيّ كريمٍ لم تُصِبهُ القوارعُ

(السابق، ص١١٣)

لكنّه لمّا يبلغ وصف النساء الثواكل يعرّفهنّ بالنائحات في المآتم:

الباعثُ النُّوحَ في مآتمه

مثل الظبا الأبكار بالجَرَدِ

(السابق، ص٧٢)

ثمّ يصف لبيد النساء الكريمات أنّهنّ كيف يفقدن صوابهنّ عند المصيبة فيقمن بلطم الوجه والعويل فيقول:

فلم أرَ يوماًكان أكثَرباكيا

وحسناء قامت عن طِرافٍ مُجوّرِ

تبلّ خموش الوجه كلُّ كريمةٍ

عَوانٍ و بِكرٍ تحتَ قَرٍّ مَخدَّرِ[٣]

(السابق، ص٦٧)

ولكنّه بعد أنْ أسلم وانطبعت نفسيته بالثقافة الدينية الجديدة تعتدل فيه فكرته السابقة الجاهلية وينعكس تطوره في شعره الذي يسوقه حديثاً. ففي وصيته لابنتيه إذ يحضره الموت ينهاهما عن خمش الوجه وحلق الشعر ويقول:

تمنىّ ابنتاي أنْ يعيش أبوهما

وها أنا إلاّ من ربيعة أو مضر

فقوما وقولا بالذي تعلمانه

ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذي لا صديقه

أضاع ولا خان الخليل ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

ومن يبک حولا كاملاً فقد اعتذر

(السابق، ص٧٣-٧٤)

فبما أنّ البكاء لم يكن في العصر الجاهلي إلاّ بخمش الوجه وحلق الشعر فيوصيهما لبيد بأن ْيقوما بعد موته للعزاء ويقولا في الرثاء ما تعلمانه من الصفات الحميدة و يقول لهما ابكيا إنْ أردتما ولا تخمشا بأظافيركما ولا تحلقا شعركما لأنّ البكاء في انطباعه الحديث من الدين مباح ما لم يكن فيه خمش الوجه وحلق الشعر ولطم الخد. فهكذا هما عمِلتا بالوصية في البكاء ولبس الحداد إلى مدة سنة من دون الإعوال والجزع. قال البغدادي: انّهما «بعد وفاته كانتا تلبسان ثيابهما في كل يوم وتأتيان مجلس جعفر بن كلاب قبيلته فترثيانه ولا تعولان فأقامتا على ذلك حولاً كاملاً ثم انصرفتا» (البغدادي،١٩٩٨م، ج٤، ص٣١٣)

فإنّ ما دلّت هذه الوصاية هي أنّه اقتنع بالبكاء من دون خمش الوجه ونتف الشعر لكنّه لم يحتسب الحزن وما يُفضىَ عنه من ذرف الدموع من الجزع، فأجازه لابنتيه وهما ائتمرتا به. وهناک مصادر فقهية وأدبية وروائية غير قليلة فيها دلالة على إباحة البكاء أو استحبابه ما لم يكن باستبطان اعتراض وسخط على الله تعالى.

٤-٣. الجزع عند الخنساء بين الرفض والقبول

للخنساء مواقف عند الجزع تختلف بعد اعتناقها للإسلام وقبله ويختلف في بكائها الدؤوب لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في العصر الجاهلي عمّا تصبرّت وكفّت دموعها عن أولادها الأربعة الذين استشهدوا في صدر الإسلام. خنساء شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي عندما أسلمت وعاشت بعد الإسلام فترة ترفض أنْ تكون كتلک النساء الجاهليات اللواتي يحلقن رؤوسهن ويضربنها بالنعال

حزناً على من فقدن، بل ستعمد إلى الصبر والتجمّل به. وتبقى ثابتة قويّة في النفس. فهي تقول:

ولكني وجدت الصبر خيراً
من النعلين والرأس الحليق

(الخنساء، ص٨٧)

وأمّا بالنسبة للبكاء المباح أو المندوب شرعاً فهي تبكي وتعبّر عن تعزّيها بكثرة من نكبوا بأهلهم وكثرة الباكين حولها إذ تقول:

فلولا كثرةُ الباكين حولي
على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكينَ مثلَ أخي ولكن
أُسلّي النفسَ عنه بالتأسّي

(السابق، ص٧٠)

فهي في تنفيذ الوصية التي ترك لها أخوها صخر العزيز عليها عملت ببعض ما أقرّ به الإسلام واجتنبت ما قبُح من الجزع الشديد نحو الشقّ والتمزيق. فعلى رغم ما كان صخر يتوقع من أختها خنساء تمزيق خمارها على دأب العقلية الجاهلية وأنْ تلبس الحداد- وهو الصدار[٤] - في قوله قبل موته:

واللهِ لا أمنحُها شرارها
ولو هلكتُ مزَّقَت خِمارَها
وجعلت من شعر صدارها

(المبرد، ١٤١٧هـ، ج٤، ص٣٠)

لكنّ خنساء تركت التمزيق واكتفت بالبكاء ولبس الحداد إلى آخر عمرها في عزاء أخيها صخر. وذُمّ لبس الحداد في الاسلام اذا تجاوز حدّه ولهذا اعترضت عائشة على فعلتها هذه وكانت خنساء آنذاك تناهز الخمسين من عمرها، فلما زارتها عائشة بمدينة كان عليها صدارٌ لها من شعر، فقالت لها عائشة: يا خنساء إن هذا لقبيح، قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما لبست هذا، قالت: إنّ له قصة، قالت: فأخبريني ، قالت: زوجني أبي رجلاً، وكان سيّداً معطاءً، فذهب ماله، فقال لي: إلى من يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه فقسّم ماله شطرين، فأعطانا خيرهما، فجعل زوجي أيضاً يعطي ويحمل، حتى نفد ماله، فقال: إلى من؟ فقلت: إلى أخي صخر، فأتيناه فقسم ماله شطرين، فاعطانا خيرهما فقالت امرأته: أما ترضى أنْ تعطيها النصف حتى تعطيها أفضل النصيبين، فأنشأ يقول: والله لا أمنحها شِرارها ... فذلك الذي دعاني إلى أنْ لبست هذا حين هلك. (نجيب عطوي، ١٤١٣هـ، ص٦٢)

وأبيح البكاء لمدة طويلة لمثلها في هذا الموقف حتّى لدى أهل السُنّة كما يظهر ذلك من موقف لعمر بن الخطاب في عهد خلافته حيث إنّه قيل: «إنّ الخنساء لم تزل تبكي على أخويها صخر ومعاوية حتى أدركت الإسلام فأقبل بها بنو عمها إلى عمر بن الخطاب وهي عجوز كبيرة فقالوا يا أمير المؤمنين هذه الخنساء قد قرحت مآقيها من البكاء في الجاهلية والإسلام فلو نهيتها لرجونا أنْ تنتهي فقال لها عمر اتقي الله وأيقني بالموت فقالت أنا أبكي أبي وخيرَي مضر صخراً ومعاوية وإني لموقنة بالموت فقال عمر أتبكين عليهم وقد صاروا جمرة في النار فقالت ذاك أشد لبكائي عليهم فكأنّ عمر رقّ لها فقال

خلّوا عجوزكم لا أبا لكم فكل امرئ يبكي شجوه ونام الخليّ عن بكاء الشجيّ». (الصفدي،١٤٢٠هـ، ج١٠، ص٢٤٣)

إنّها اكثرت من البكاء لأبيها وأخويها لكنّها كانت متصبّرة متعزّية - كما يبدو- بالنسبة إلى استشهاد أولادها الأربعة في حرب القادسية. وكيف لا وإنّ الإسلام صنع من الخنساء شاعرة العاطفة والرقة والبكاء الحزين امرأة جهادية، رابطة الجأش، إستشهادية الطلب، تصمد من جلالة الإيمان فتُحمّس أولادها من أجل بقاء الإسلام ونصرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حرب القادسية قائلة لهم من أوّل الليل: «إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا إله غيره أنّكم لبنو رجل واحد كما أنّكم بنو امرأة واحدة ... وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدنيا الفانية يقول الله: (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَرابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). (آل عمران/٢٠٠) فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ... إلى آخر الحديث». (السابق، ج١٠، ص٢٤٣)

٥.الجزع في الأدب الإسلامي

إنّ الآباء في كل عصر على يقين من فجيعة بناتهم فيهم وبكائهنّ إياهم، و يعلمون ما سيتغلب عليهنّ من الجزع ولا يردعهنّ عن ذلك أكثرهم ولكن إذا راجعنا بعض المصادر التأريخية أو الحديثية يظهر منهم من نهاهنّ عن ذلك خاصة بعد البعثة النبوية إقتداءً بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته.

قال الشاعر:

فقلت لها لا تجزعي أم مالك

على ابنيك إن عبد لئيم شراهما

(ابن هشام الحميري،١٣٨٣هـ،ج٣، ص٦٧٢)

وقال الشاعر:

يقول للمهر والنشاب يشعره

لا تجزعن فشر الشيمة الجزع

(الزبيدي،١٤١٤هـ، ج٧، ص٣٧)

إنّ الجزع - كما سبق تعريفه – هو أعمّ من الحزن وأشدّه وأوسع منه مصداقاً وتفجّعاً فإذا أردنا أنْ نعلّق عليه نفسيّاً فنقول بأنّ الجزع بهذه الصورة يبتعد عن إثارة العواطف المشفقة الهادئة ليقترب من إثارة الأعصاب ولا يبعث الحزن والأسى للمرثي بقدر ما يبعثه للباكية ومن معها.

ومن القسوة انْ تطالَب المرأة الضعيفة بكل هذا التعذيب الجسدي دون الرجل وهو أقوى منها نفسيّاً وجسدياً. وهذا الأمر بدلاً من أنْ يُهدّئ من روع المجتمع يزيد من أوجاعه وآلامه لأنّ في الجزع مصيبة أخرى تصيب المرأة والمجتمع معاً وتسبّب الحزن والكآبة وانهيار النفس ويضعّف قوّة الإرادة لدى المصابين كما وإنّ الجزع الشديد ثورة مكتومة تتهيّج ثانيةً لتعقّبه آثار سلبية تطول مدّتها ويدوم مُقامها فيزيد من قلق المرأة واضطرابها ويذهب ببهائها وجمالها الجسدي في تعذيب نفسها. فلذلك ورد النهي عن الجزع الشديد في السُنة والشيعة. ففي صحيح مسلم روي عن الرسول (صلى الله عليه وآله

وسلم) أنّه: «ليس منآ من صلق أو حلق أو خرق». (المتقي الهندي، ج١٥، ص٦١٠) اي ليس منّا من رفع صوته أو حلق شعره أو شقّ جيبه عند الموت. وكذا روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «ليس منّا من ضرب الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». (البخاري، ج٢، ص٨٣)

وعلى هذا الأساس نهى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين المصابين عن مثل هذا الجزع فعن عمروبن مقدام قال: «سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: تدري ما قوله تعالى: (وَ لا يَعْصينَكَ في مَعْرُوف)(الممتحنة/١٢)؟ قلت: لا قال: إنّ رسول الله (ص) قال لفاطمة (عليها السلام) : إذا أنا متّ فلا تخمشي عليّ وجهاً ولا ترخي علي شعراً، ولا تنادي بالويل، ولا تقيمي عليّ نائحة، قال ثم قال: هذا المعروف الذي قال عزّ وجلّ». (كلينى رازى، ١٣٦٢ش، ج٥، ص٥٢٧) فعلى ذلک لم نجد لبنت النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إبداء جزع ممّا نهاها عنه رسول الله (ص) وكانت سلام الله عليها عالمة معترفة بذلك. وهي لمآ أخرج بعليّ (عليه السلام) بعد السقيفة خرجت خلفه لتمنعهم من قتله فقالت ضمن حديث جرى لها مع أبي بكر: «مالي ومالك يا أبا بكر، تريد أنْ تؤتّم ابني وترمّلني من زوجي، والله لولا أنْ تكون سيّئة لنشرتُ شعري ولصرخت إلى ربي». (الكليني،١٣٦٧ش، ج٨، ص٢٣٨)

هذا وإنّ الزهراء (عليها السلام) نفسها أمرت نساء بني هاشم اللاتي جئن يساعدنها عند وفاة أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنْ يقتصرن على الدعاء، ففي الكافي بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام)، عن أمير المؤمنين قال: «مروا أهاليكم بالقول الحسن عند موتاكم، فإنّ فاطمة (عليها السلام) لما قبض أبوها (صلى الله عليه وآله وسلم) أسعدتها بنات هاشم فقالت: اتركن التعداد وعليكن بالدعاء» (السابق، ج٣، ص٢١٨) كما أنّ عليّ بن أبي طالب بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذ الصبر وإن شقّ عليه وهو القائل على قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعظيماً له ساعة دفن: «إن الصبر لجميل إلاّ عنك، وإنّ الجزع لقبيح إلاّ عليك».(الميرزا النوري، ج٢، ص٤٤٥) ثمّ يقول (عليه السلام) وهو يلي غسل رسول الله (ص) وتجهيزه: «ولولا أنّك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤون». (السابق، ج٢، ص٤٤٥)[٥]

ومثله ما روي عن الحسين بن علي (عليه السلام) في المَقاتل بأنّه قال (عليه السلام): «يا أُختاه يا أُمّ كلثوم ، وأنتِ يا زينب ، وأنتِ يا فاطمة، وأنتِ يا رباب، إذا أنا قُتلت فلا تشققنَ عليَّ جيباً، ولا تخمشن عليَّ وجهاً، ولا تقلن هجراً». (المقرّم، ١٤١٤هـ، ص٢١٨) وفي رواية أخرى قال لها : «يا أُخيّة إني أُقسمُ عليكِ فأبرِّي قَسمي، لا تشُقي عليَّ جَيباً، وَلا تخمشي عليَّ وَجهاً ، وَلا تدعي عليَّ بالويلِ والثبورِ إذا أنا هلكت». (الميرزا النوري، ٤٥١/٢؛ أبو مخنف الأزدي، ص١١٢). وكان لهذه الوصية صدى واسع في أدب المرثاة الإسلامي ذكر في الموسوعات الأدبية لمراثي الأدباء كقول الشاعر:

في جليلِ الخطبِ يا أختُ اصبري الصبر الجميل

إن خيرَ الصبرِ ما كان على الخطبِ الجليل
واتركي اللطمَ على الخدِ وإعلان العويل
ثم لا أكره سَقيَ العينِ ورد الوجنتين.
(عبد الله حسن، ١٤١٨هـ، ص٤٣)

وأضاف الإسفراييني له عليه السلام:

إبكي وقولي: يا قتيلا قد مضى
عجلا على شط الفرات عطشاني
إبكي وقولي إنهد ركني بعد ما
كانت تزعزع ركنه الأركان
فإذا قتلت فلا تشقي معجرا [منزاء]
أيضا ولا تدعي ثبور هوان
لكن صبرا يا سكينة في القضاء
ها نحن أهل الصبر والإحسان
لي أسوة بأبي وجدي وإخوتي
قصدوا حقوقهم بنو الطغيان
(الصابري الهمداني،١٤١٥هـ، ص٤٥)

والوجه في ذلك لعلّه يعود إلى أنّ الخمش والشقّ والدعوة على النفس بالهلاك والثبور من الأمور المنهية عنها في الدين إذ أنّها بغضّ النظر عمّا تؤكّد على الحزن الشديد والعاطفة القاسية للمرأة أثناء المصاب وتبدي حالة الهلع والذهول التي تصاب بها المرأة المصابة في أعزّ رجالها فهي تمسّ المرأة بوجاهتها لأنّها تفقد حينئذٍ سيطرتها فتنسى صوابها وكرامتها وصونها. فإذا سمع الإنسان الناعي وكانت له ردّة فعل عنيفة وقاسية فتضاعف مصيبته بدلاً من أنْ تسكّن روعته كما في تحف العقول: قال: قال أبو الحسن الثالث (عليه السلام): «المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان». (الميرزا النوري، ج٢، ص٤٤٤)

إضافة إلى أنّ الجزع الشديد لشخصية مرموقة كزينب أخت الحسين وابنة فاطمة وعلي عليهم السلام في مثل تلك الظروف السياسية والثقافية الحاسمة والفريدة في التاريخ الإسلامي كان يُرجَّى منها بالفعل عدم إظهار الجزع لكيلا يثير الحزن والأسى فيما بين الأسرى المصابات اللاّتي فقدن حماتهم واللاّتي سُلبن ونُهبن في يوم عاشوراء.

تكاد تجمع الأحاديث الشريفة على أنّ الجزع لا يجدي شيئاً عند وقوع المصيبة سوى إرهاق وتعب وملل أكثر. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «الجزع أتعب من الصبر». وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «من لم ينجه الصبر، أهلكه الجزع». (السابق، ج٢،ص٤٤٤) وهلاك صاحب المصيبة من جرّاء الجزع يمكن اعتباره من عدة جهات:

الجهة الأولى عدم التسليم والرّضا فيما قدّر الله له من البلاء فيقوم بفعال فيه سخط ربّه فيحبط حينئذٍ عمله وينقص أجره كما أوصى الحسين (عليه السلام) أهل بيته بالصبر، ووعدهم بالثواب والأجر في وداعه قائلاً لهم: «استعدوا للبلاء ... فلا تشكوا، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم». (موسوعة كلمات الإمام الحسين (عليه السلام)،١٤١٦هـ، ص٥٩١). وفيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) حيث قال : «اتقوا الله واصبروا، فإنه من لم يصبر أهلكه الجزع، وأمّا هلاكه في الجزع، أنّه إذا جزع لم يؤجر». (الميرزا النوري، ج٢، ص٤٤٦)

والجهة الثانية تعود إلى ما يصاب به الجازع من إصابات نفسية وأعصاب منفلتة وقطع الأمل والعمل عند لحظة المصيبة إذ أنّه يظن حينئذٍ أنّ الشرّ الواقع به مضروب عليه سرمداً فلا يتصور لذلك فرجاً عاجلاً يفرّج عن همومه و لا يحتسبه عند الله إذ لا يتوقع منه تعالى تغييراً فمن ثم يأكله الجزع بقطع رجائه وأمله . وأبان عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) لهذه الجهة من الجزع ثلاث عقبات في قوله: «... فإياك والجزع، فإنّه يقطع الامل، ويضعف العمل، ويورث الهمّ». (السابق،ج٢، ص٤٤٧) هذا وللجزع حلبة أخرى تخرجه عن بعض سلبياته نذكرها تكملة للرؤية الإسلامية في التالي.

٥-١. الجزع قبل المصيبة وبعدها

وبما أنّ الجزع فيه حزن شديد يأخذ من الإنسان سكونه وصبره ويتطلب منه حركة مصحوبة بقلق فمن الأفضل الالتزام به في مواقف من حرج وشدّة قبل وقوع المصيبة لينتهز به الإنسان الفرصة ويهتمّ بإزالة عقباتها قبل تضاعف همومه. ولكن إذا نزلت المصيبة وفات منه ما لا يمكن تلافيه فعندئذٍ يلزمه تحاشي الجزع واستسلامه للقضاء والقدر.

وكان من دأب الصالحين وسيرتهم اتخاذ مثل هذه المسير المهيع، فامتُدِح الجزع بذلك قبل المصيبة واستقبح بعدها كما يستشفّ هذا المعنى في بعض الروايات. فعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: «إنا أهل البيت إنما نجزع قبل المصيبة فإذا وقع أمر الله رضينا بقضائه وسلمنا لأمره». (الكليني، ج٣، ص٢٢٥) وفي حديث عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنّه قال: «لا يصلح الصياح على الميت ولا ينبغي ولكن الناس لا يعرفونه والصبر خير». وفي مجلس آخر قال أبو عبد الله (عليه السلام) : «إنا لنحبّ أن نعافى في أنفسنا وأولادنا وأموالنا فإذا وقع القضاء فليس لنا أن نحبّ ما لم يحبّ الله لنا». (السابق، ج٣، ص٢٢٦)

واهتمّ الشعراء بهذا المعنى في مراثيهم بأنّ الجزع بعد المصيبة لا يجدي شيئاً نحو ما ذهب إليه أبو ذؤيب الهذلي بأنّ التوجع الشديد بإظهار الجزع من الموت وصروف الدهر، لا يفيد المصاب في إعادة ما فقده إليه:

أمنَ المنونِ وريبها تتوجعُ
والدهرُ ليس بِمُعتِبٍ من يجزعُ

(البستاني، ج٢، ص٦٩)

وكذلك قول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي:

أيتها النفس أجملي جزعاً
إنّ الذي تحذرين قد وقعا

(المبرد، ١٤١٧هـ، ج١، ص٣١٢)

ونحو قول الشاعر:

يا نفس لا تجزعي من شدّة عرضت
وأيقني من إله الخلق بالفرج

(الذهبي، ١٤٠٧هـ، ج٣٨، ص٥٩)

٥-٢. الجزع بين الكراهية والمندوبية في الفقه الإسلامي

بالإستقصاء في بعض الروايات وفقه أهل البيت

(عليهم السلام) يتبيّن لنا بأنّ الجزع بالإضافة إلى تحريمه في عدة حالات وتعيين الكفّارة على صاحبه قد يقتصر على ذمّه وكراهيته فيكون مذموماً مكروهاً وقد يكون مندوباً وممدوحاً في ظروف أخرى. ولكلّ فعل من أعمال الجزع ردّ فعل له في أدب الشعر تناوله الشعراء في مراثيهم. وأمّا ما يتعلق بفقهية البحث فإنّه ذهب معظم الفقهاء إلى أنّ الجزع على الميت - أي عدم الصبر على موته - مكروه إلا أنْ يكون منافياً للرّضا بقضاء الله فهو محرّم، وفي هذا يقول السيد اليزدي: «أمّا البكاء المشتمل على الجزع وعدم الصبر فجائز ما لم يكن مقرونا بعدم الرضا بقضاء الله، نعم يوجب حبط الأجر، ولا يبعد كراهته».(السيد اليزدي،١٤١٩هـ، ج٢، ص١٣١). كما ذكر أنّه: «لا يجوز اللطم والخدش وجز الشعر بل والصراخ الخارج عن حد الاعتدال على الأحوط وكذا لا يجوز شق الثوب على غير الأب والأخ والأحوط تركه فيهما أيضا ... وفي جز المرأة شعرها في المصيبة كفارة شهر رمضان، وفي نتفه كفارة اليمين، وكذا في خدشها وجهها فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام». (السابق، ج٢، ص١٣٠، السيد الخميني،١٣٩٠هـ، ج١، ص١٩٣)

وفي شقّ الرجل ثوبه في موت زوجته أو ولده كفارة اليمين وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة». (السيد اليزدي،١٤١٩هـ، ج٢، ص١٣٢)

فكما يبدو أنّ هنالك استثناء في عدم تحريم الجزع للأب والأخ من دون غيرهم. وتوسّع البعض الآخر في جوازه إلى الأمّ والزوج وحتى بعض الأقارب الآخرين.[٦]

٦.استمرارية الجزع بعد البعثة النبويّة

قد استمرّ عرف الجزع والوصاية والافتخار به عند البعض بعد ظهور الإسلام. قال أبو ذؤيب الهذلي في توقعه ما تفعل بناته بعد موته من ضرب صدورهن حواسر بالنعال:

وقام بناتي بالنعال حواسراً

وألصقن وقعَ السِّبتِ [٧] تحت القلائد

(الجاحظ، ١٩٦٨م، ج٣، ص١١١)

وفي التأسّي بمثل هذا الامر الشائع يقول متمّم بن نويرة مخاطباً امرأته:

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي

لك الويل حرّ الوجه وليبك من بكا[٨]

(البغدادي، ١٩٩٨م، ج٩، ص١٣)

وقالت ليلى بنت طريف ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً

كأنك لم تجزع على ابن طريف

(أبو الفرج الاصفهاني، ج١٢، ص١٦)

ويقول ابوتمام في رثائية تتفجر ألماً وحسرة على عمير بن الوليد موصياً فيها بخمش النحور والخدود:

أعيدي النوح معولة أعيدي

وزيدي من بكائكِ ثم زيدي

وقومي في نساء حاسراتٍ

خوامشَ للنحور و للخدود

هوالخطب الذي ابتدع الرزايا

وقال لأعين الثقلين جودي

(ابوتمام، ١٤١٤هـ، ج١، ص٤٥٧)

وإنّ الأمر لم يقتصر على ذلك وإنّما بقي جري هذه

الجهة من إظهار المصيبة على ألسنة من الذين قاموا برثاء النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته فهذا حسّان بن ثابت من الشعراء الأوائل في صدر الإسلام نافح عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بلسانه في مواقف عدة في الحروب مع الكفار. يقول من مرثية له في حمزة عم النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن أصيب من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحد معتمداً فيها على الدأب الثقافي الجاهلي في إظهار التفجّع والتألّم الشديد بتوصية الجزع والنياحة ونشر الشعور لميّ عند إقامة العزاء قائلاً:

يا ميّ قومي فاندبن
بسحيرة شجوَ النوائح
كالحاملات الوقر بالثقل
الملحّات الدوالح
المُعوِلات الخامشات
وجوه حرات صحائح
وكأن سيل دموعها الأنصاب
تخضب بالذبائح
ينقضن أشعاراً لهنّ
هناك بادية المسائح[٩]

(ابن كثير، ١٤٠٨هـ، ج٤، ص٦٦)

يبدو أنّ مثل هذه الوصايا لا تعني اظهار الجزع بشق الجيب بذاته وإنّما يقصد من ورائه تعداد مآثر المرثيّ وتأبينه وتعظيمه.لكنّ التقاليد المعروفة في المجتمع الجاهلي آنذاك كانت هي السائدة على هذه الفكرة بأنّ المرثيّ له لا يرجو تعظيمه وتكريمه بالتأبين إلاّ عن طريق شق الجيوب وحلق الشعور ولطم الخدود وخمش النحور و....

وهذه عاتكة بنت زيد تصوّر نساء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهن غارقات في الحزن واليأس يسفكن الدموع، ويلطمن الوجوه وأشرفن على الهلاك فتقول:

وأمست تُبكّي مراكبه أوحشت
وقد كان يَركبُها زَينُها
وأمست نساؤُكَ ما تستفيق
من الحزنِ يعتادها دينُها
يُعالجن حُزناً بعيدَ الذهابِ
وفي الصَّدرِ مُكتَنِعٌ حَينُها
ويضرب بالكفِّ حُرَّ الوجوه
وعلى مثلِه جادَها شُؤنُها
هو الفاضلُ السيد المصطفى
على الحقِّ مُجتمِعٌ دِينُها

(ابن سعد، ج٢، ص٣٣٢)

وكذلك مواقف أخرى جرت في عدم كراهية الجزع لسيد الشهداء (عليه السلام) بل استحبابه كما في بعض الروايات والمسائل الفقهية، وردّت فعل ذلك في الشعر الشيعي، منه قول الشاعر فيما يرى نفسه مأجوراً على نوحه على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)دون غيره وجزعه بدمعه عليه مطهّراً لذنوبه:

أرى الأجر في نوحي عليه ولا أرى
سوى الإثم في نوح البواكي الثواكل
أيا قلب واصله بأعظم رحمة
ويا عين أبكيه بأغزر وابل

ويا دمع طهر إثم من بات جازعاً

على ذي غنى بالله عن ظهر غاسل

(ابن عساكر،١٤١٥هـ، ج١٤، ص٨٤)

ومنه قول صالح الكواز الحلي فهو لا يرى من البيّنة أنْ يجزع لكل رزية إلاّ رزية أهل البيت (عليهم السلام):

وأنا الذي لم أجزعن لرزيّة

لولا رزاياكم بني ياسين

(المسعودي،١٤٢٠هـ، ص٣٧٩)

وهكذا ذهب إليه بعض الشعراء بأنّه لا ينبغي الجزع والبكاء على دار سوى دار الأبرار والصالحين من أهل بيت النبي (ص) قال الشاعر:

حزنت وما حزني على الجزع والنقا

ونحت وما نوحي لدار وديار

وما جزعي وجداً على الجزع والحمى

ولكن على ندب بقية أبرار

(السيد محسن الأمين،١٤٠٣هـ، ج٧، ص٤٤٧)

واستشهد البعض الآخر في جواز اللطم على سيد الشهداء (عليه السلام) بشعر دعبل قائلاً: «وعن اللطم بالخصوص نجد الإمام الرضا عليه السلام لا يعترض على دعبل حينما أنشد قصيدته. وقد جاء فيها:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلا

وقد مات عطشانا بشط فرات

إذن للطمت الخد فاطم عنده

وأجريت دمع العين في الوجنات

(دعبل الخزاعي، ١٤١٧هـ، ص٦١)

فلم يقل له إن فاطمة لا تفعل ذلك، لأنه حرام. بل نجده - كما تذكر بعض الروايات - قد زاد له بيتين في قصيدته يؤكد أنّ الحزن العظيم والمستمر إلى يوم القيامة عليه هو عليه السلام. والبيتان هما:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة

الحت على الأحشاء بالزفرات

إلى الحشر حتى يبعث الله

قائما يفرج عنا الهم والكربات

(السيد مرتضى، ج١، ص٣٣٥)

وفي الاستدلال بجوازه ذهبوا إلى «أنّ الجزع المذموم والمرفوض من قبل الشارع هو الذي يستبطن الاعتراض على الله سبحانه حين يعتبر الجازع أنّ ما حدث يمثّل ظلماً، وتعدياً وتصرفاً غير سديد. كما أنّ من الواضح أيضاً: أنّ إظهار الحزن الشديد لا يستبطن الاعتراض على الله بحيث لا ينفك هذا الإظهار عن ذلك الاعتراض، إذ كثيراً ما ينطلق الجزع من حب الله ومن شدة الاهتمام بالحفاظ على الدين ورموزه الكبرى، وهذا يكون جزعاً ممدوحاً، ومحبوباً له تعالى، ومندوباً إليه». (السيد مرتضى، ج١، ص٣٣٤) وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إنّ البكاءَ والجزع مكروه للعبد في كل ما جزِع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي (عليه السلام) فإنّه فيه مأجور». (الحر العاملي،١٤٠٩هـ، ج١٤، ص٥٠٥)

وذهب فيه المحقق البحراني إلى أنّ «المراد بالكراهة هنا عدم ترتب الثواب والأجر عليه مجازاً

لا الكراهة الموجبة للذم، وذلك فإنه ليس في شيء من أفراد البكاء ما يوجب الثواب الجزيل والأجر الجميل مثل البكاء عليه والبكاء على آبائه وأبنائه (عليهم السلام) وقصارى البكاء على غيرهم أنّ سبيله سبيل المباحات». (المحقق البحراني، ج٤، ص١٦٤)

وعن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث زيارة الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء من قرب وبعد، قال: «ثمّ ليندبِ الحسين (عليه السلام) ويبكيه ويأمر مَن في داره ممّن لا يتّقيه بالبكاء عليه، ويقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه، وليُعزِّ بعضُهم بعضاً بمصابهم بالحسين (عليه السلام)». (الحرّ العاملي،١٤٠٩هـ، ج١٤، ص٥٠٩)

وعليه يبدو أنّ من مصاديق الجزع الممدوح الذي ورد في بعض الأحاديث بشأن الحسين بن عليّ (عليه السلام) قد كان يقصد منه البكاء بتفاعل وتساخن عليه من دون إظهار سخط على الله تعالى وذلك من أجل تبليغ الهدفية واستمرارية الثورة على مرّ العصور. فعن مسمع بن عبد الملك قال: قال لي أبوعبد الله (عليه السلام) في حديث: أما تذكر ما صُنع به (يعني بالحسين (عليه السلام) ؟ قلت: بلى. قال: أتجزع؟ قلت: إي والله، وأستعبر بذلك حتى يرى أهلي أثر ذلك علي، فأمتنع من الطعام حتى يتبين ذلك من وجهي. فقال: رحم الله دمعتك، أما إنّك من الذين يُعدون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، أما إنّك سترى عند موتك حضورَ آبائي لك...». (السابق، ج١٤، ص٥٠٧، وج١٠، ص٣٩٦)

النتيجة

- كان الجزع من العناصر المهمّة المؤكدة عليه في الرثاء الجاهلي لتعظيم شخصيّات الرجال ولكن بعد الإسلام تضاءل ضوؤه. وقد ظهر صدى هذا الأمر بوضوح في الشعر المخضرم لدى الشعراء المسلمين حيث نجد لهم فكرتين مختلفتين اندفاعاً بالجاهلية والإسلام.

- لم تكن الجاهلية مهتمّة بشخصية المرأة في إقامة العزاء، فكان المطلوب منها التأوّه والجزع بأشدّ الطريقة من غير أنْ يطالب بالرجل ولكنّ الإسلام حدّ من ذلك وجعل المرأة لها شخصيّتها.

- للجزع مظاهر مختلفة من اللطم وجزّ الشعر وخرق الجيب والدعاء على النفس بالويل والثبور والنياحة بالكذب والباطل وغيره. واستمرّ ذلك بعد البعثة النبويّة بتحديدٍ ونظرة جديدة فله صداه في المرثاة العربية على درب آخر العقلية الحديثة المنطبعة بالثقافة الإسلامية.

- أصبح الجزع ممدوحاً لسيد الشهداء (عليه السلام) لما فيه من عظم المصيبة وتبليغ المظلومية واستمرارية الثورة حسب ما ورد في عدة روايات لكن بتحديدٍ وشروطٍ من الرضاء بقدر الله وقضائه وبحزن رسالي مستهدف وبتجنب الكذب والكلام الباطل والسخط على الله وما إلى ذلك.

- للجزع المذموم سلبيات ذُكر بعضُها في الأحاديث الشريفة كقطع الأمل وتضاعف الهموم، وضعف العمل وعدم الأجر وهلاك النفس و... فمن جرّاء ذلك نهي عنه في الثقافة الإسلامية الحديثة.

الهوامش

١- الندبة: بيان الحزن وبكاء الميت بتوجع، والتأبين: الإشادة بمناقب الميت، والتعزية: طلب الصبر والتسلي لصاحب الميت.

٢- تأوب نوح: عاودهن النواح ليلاً. وضرب السبت شبيه بضرب السلاسل عند إقامة التعازي.

٣- الطِراف: الخيمة من أدَم . مَجوَّر: مقوَّض ، ساقط . تبلّ: أي تبل خدوش الوجه بالدم . العوان: المرأة في منتصف عمرها. القَرّ: الهودج المخدّر: المستّر بالثيابة.

٤- الصدار: بكسر الصاد: ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة، وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صداراً من صوف.

٥- الشأن: مجرى الدمع إلى العين، والجمع: أشؤن وشؤون. ماء الشؤون: الدموع.(ابن منظور، ١٣/ ٢٣٠)

٦- للمزيد راجع: «هداية العباد، السيد الكلبايكاني، ج١، ص٨٩».

٧- السِّبت: النعال المدبوغة بالقرظ.

٨- البعوضة: موضع كان للعرب فيه يوم مذكور، قال متمم بن نويرة يذكر قتلى ذلك اليوم.

٩- لم نعثر على الأبيات في شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري للبرقوقي، ١٩٩٠م؛ و ديوان حسان بن ثابت، شرح العسيلي، ١٩٩٨م.

المصادر والمراجع

١- ابن رشيق القيرواني الأزدي، أبو علي الحسن (ت٤٥٦هـ)، (١٩٨١/١٤٠١م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المجلد الأوّل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، بيروت، دار الجيل.

٢- ابن سعد، محمد (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، المجلد الثاني، بيروت، دار صادر.

٣- ابن عساكر (ت٥٧١هـ)،(١٤١٥هـ)، تاريخ مدينة دمشق، المجلد الرابع عشر، تحقيق: علي شيري، مطبعة دار الفكر.

٤- ابن عبد ربه الأندلسي، أبوعمر، شهاب الدين أحمد بن محمد، (١٤٠٤هـ)، العقد الفريد، المجلد الأوّل، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥- ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، (١٤٠٨-١٩٨٨م)، البداية والنهاية، المجلد الرابع، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٦- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، المجلد الثامن والثالث عشر، الطبعة الأولى، بيروت، دار الصادر.

٧-ابن هشام الحميري(ت٢١٨هـ)،(١٩٦٣/١٣٨٣م)، السيرة النبوية، المجلد الثالث، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده.

٨- ابوتمام، (١٤١٤-١٩٩٤م)، ديوان ابوتمام، شرح: الخطيب التبريزي، المجلد الأوّل، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي.

٩- ابو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، الأغاني، المجلد الثاني عشر، تحقيق سمير جابر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر.

١٠- أبو مخنف الأزدي(ت١٥٧هـ)، مقتل الحسين (ع)، تعليق: حسين الغفاري، قم، مطبعة العلمية.

١١- الأخطل،(١٤٢١-٢٠٠٦م)، ديوان الأخطل، شرح راجي الأسمر، بيروت، دار الكتاب العربي.

١٢- الأمين، السيد محسن، (١٤٠٣-١٩٨٣م)، أعيان الشيعة، المجلد السابع، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات.

١٣- البخاري (ت٢٥٦هـ)، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، المجلد الثاني، بيروت، دار الفكر.

١٤- البستاني، فؤاد افرام، المجاني الحديثة عن مجاني الاب شيخو، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

١٥- البغدادي، (١٩٩٨م)، خزانة الأدب، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٦- الجاحظ، عمروبن بحر أبو عثمان، (١٩٦٨م)، البيان والتبيين، المجلد الثالث، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، الطبعة الأولى، بيروت، دار صعب.

١٧- الحرّ العاملي، شيخ محمد بن حسن، (١٤٠٩هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المجلد الرابع عشر، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة آل البيت.

١٨- حسان بن ثابت، (١٢٩٠-١٩٩٠م)، شرح ديوان حسان بن ثابت، وضعه وضبط الديوان: عبد

الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي.
١٩- حسان بن ثابت، (١٤١٨-١٩٩٨م)، ديوان حسان بن ثابت، شرح وضبطه وقدم له : علي العسيلي، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة النور.
٢٠- الخنساء، ديوان الخنساء، بيروت، دار صادر.
٢١- دعبل الخزاعي، (١٤١٧/١٩٩٧م)، ديوان دعبل الخزاعي، شرحه وضبطه وقدم له: ضياء حسين الأعلمي، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي.
٢٢- الذهبي، تاريخ الإسلام، (١٤٠٧-١٩٧٨م)، المجلد الثامن والثلاثون، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دارالكتاب العربي.
٢٣- الراغب الإصفهاني، (١٤٠٤هـ)، مفردات غريب القرآن، الطبعة الثانية، دفتر نشر الكتاب.
٢٤- الزبيدي، (١٤١٤- ١٩٩٤م)، تاج العروس، المجلد السابع، بيروت، دارالفكر.
٢٥- السيد مرتضى (ت١٤٢٢هـ)، جعفر، خلفيات كتاب مأساة الزهراء(ع)، المجلد الأوّل، بيروت، دار السيرة.
٢٦- السيد الخميني (ت١٤٠٩هـ)، (١٣٩٠ش)، تحرير الوسيلة، المجلد الأوّل، الطبعة الثانية، قم، دار الكتب العلمية.
٢٧- السيد الكلبايكاني (ت١٤١٤هـ)، (١٤١٣هـ)، هداية العباد، المجلد الأوّل، قم، دار القرآن الكريم.
٢٨- السيد اليزدي (ت١٣٣٧هـ)، (١٤١٩هـ)، العروة الوثقى، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة النشر الإسلامي.
٢٩- صابري الهمداني، أحمد، (١٤١٥هـ)، أدب الحسين وحماسته، الطبعة الثانية، قم، مؤسسة النشر الاسلامي، قم.
٣٠- الصفدي (ت٧٦٤هـ)، (١٤٢٠-٢٠٠٠م)، الوافي بالوفيات، المجلد العاشر، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث.
٣١- ضيف، شوقي، الرثاء، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية.
٣٢- طرفة بن العبد، (١٤١٤/١٩٩٤م)، ديوان طرفة بن العبد، قدّم له وشرحه: سعدي الضّنادي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي.
٣٣- عبد الله الحسن، (١٤١٨هـ)، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، الطبعة الأولى.
٣٤- قدامة بن جعفر، أبو الفرج، (١٣٠٢هـ)، نقد الشعر، الطبعة الأولى، قسطنطينية، مطبعة الجوائب.
٣٥- كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: عمر فاروق الطبّاع، بيروت، شركة دار الارقم.
٣٦- الكليني الرازي، محمد بن يعقوب، (١٣٦٧ش)، الكافي، المجلد الثالث والخامس والثامن، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثالثة، طهران، دار الكتب الإسلامية.
٣٧- لبيد بن ربيعة،(١٤١٧/١٩٩٧م)، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: عمر فاروق الطبّاع، الطبعة الأولى، بيروت، شركة دار الأرقم.

٣٨- لجنة الحديث في معهد باقر العلوم (ع)، (١٤١٦-١٩٩٥م)، موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع)، الثالثة، دار المعروف.
٣٩- المبرد، محمد بن يزيد، ابو العباس (ت ٢٨٦هـ)، (٢٠٠٩م)، التعازي والمراثي، بيروت، دارالكتب العلمية.
٤٠- المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس، (١٤١٧-١٩٩٧م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الفكر العربي.
٤١- المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، كنز العمال، المجلد الخامس عشر، تحقيق: الشيخ بكري حياني، الشيخ صفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٤٢- المحقق البحراني (ت١١٨٦هـ)، الحدائق الناضرة، المجلد الرابع، تحقيق: محمد تقي الإيرواني، قم، مؤسسة النشر الإسلامي.
٤٣- المسعودي، الشيخ محمد فاضل، (١٤٢٠-٢٠٠٠م)، الأسرار الفاطمية، تحقيق: السيد عادل العلوي، الطبعة الثانية، قم، مؤسسة الزائر.
٤٤- مصفطوي، حسن، (١٣٦٠ش)، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المجلد الثاني، طهران، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، تهران.
٤٥- المقرّم، عبدالرزاق الموسوي، (١٤١٤-١٣٧٢ش)، مقتل الحسين (ع)، الطبعة الثانية، الطبعة الثانية، انتشارات الشريف الرضي.
٤٦- الميرزا النوري، حسين، مستدرك الوسائل، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة آل البيت.
٤٧- نجيب عطوي، علي، (١٤١٣-١٩٩٣م)، الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، بيروت، دار الكتب العلمية.